الطالب: حمديني بلقاسم

الورقة البحثية:

" البعد النفسي للشخصية المركزية في الرواية السيرغيرية"

-رواية " ليلة الريس الأخيرة" للروائي الجزائري: ياسمينة خضرا نموذجا-

مقدمة:

تربط علاقة وثيقة الرواية بالجانب النفسي، مثلما الحال ارتباطها الوثيق بالجانب الاجتماعي و التاريخي، فالدافع الذي يجعل الروائي يطرق هذا المجال، هو ايمانه الشديد أن السرد يستطيع خلق و إتاحة حرية تامة للشخصية، كي تبوح بما تحمله من تبعات نفسية، فقد يقال في النص ما يعجز عن قوله في الواقع، لأن للواقع ضوابط و موانع و كوابح، فالمجتمع يشكل مؤسسة ينتسب إليها الفرد، و يمتثل لقوانينها التي تسيرها.

يساهم الروائي المبدع في بلورة مواقع شخصياته في النص، فكل شخصية تحتل موقعا ومنوطة بأداء دور ما، و من خلال التفاعل الذي يحصل بين مجموع الشخصيات، تظهر تلك الأفعال و الممارسات ذات الطابع النفسي، متمثلة في السلوك النفسي للشخصية، و الذي يتنبه لذلك السلوك هو (القارئ- الناقد)، من خلال قراءات معمقة للنص السردي الروائي، و عبر إعمال لآليات نقدية سيكولوجية، تسعفه في تشخيص المسار النفسي للشخصية منذ بداية دورها في الرواية حتى انتهائها منه، و سواء كانت شخصية مركزية أم هامشية، رئيسية أم ثانوية.

يكمن الغرض من إقدام (القارئ- الناقد) على متابعة سلوك الشخصية داخل النص السردي الروائي، في ضرورة التعرف على ذلك الجانب الاضطرابي المظلم في تركيبة الشخصية النفسية، و هذا ما يهم في الحقل العلمي النفسي، أما من الناحية الابداعية فلا تشكل الأمراض و العقد النفسية عائقا أمام الفن، فالفن يتخلل جميع العوالم، و لا وطن له.

لقد اتكأت معظم الجهود البحثية العلمية الفرويدية (نسبة إلى سيغموند فرويد)، على أعمال (وليام شكسبير) الأدبية، فالنص الأدبي في منظور (سيغموند فرويد) حقل حافل بالحقائق الدفينة و الأسرار المكبوتة، التي ينبغي كشفها و إدراك ماهيتها، هل هي سلوكات طبيعية، أم علل نفسية نجهل طبيعة تكونها، فمن خلال محاولاته القرائية لمؤلفات (شكسبير)، استطاع المحلل النفسي النمساوي (فرويد)، التوصل إلى (عقدة أوديب) الشهيرة، و حجم الأثر الذي تتركه في صاحبها.

على الصعيد التأليفي نسج على هذا المنوال الروائي المصري (نجيب محفوظ) روايته النفسية السلوكية (السراب)، و كيف استطاع تصوير الحالة اللاسوية لشخصيته المركزية (البطلة) الابن (كامل رؤبة لاظ)، و كيف كان يصرف شعوره العاطفي الغير سوي نحو أمه، و في الأخير انتهى زواجه بالفشل التام.

في الرواية الجزائرية هناك تطرق إلى الجانب النفسي فيها كثيرا، و لا ننس أن فترة (العشرية السوداء) و كذلك (الثورة التحريرية)، انعكسوا فعليا على المجتمع، و تركوا آثارا نفسية شديدة، حتى لتجدن أن الروائي نفسه متأثر لحد كبير، فماذا يكون وضع الشخصية في الرواية إذن ؟.

في عمله الروائي السير غيري، يضعنا الكاتب (ياسمينة خضرا) أمام حالات نفسية تعيشها الشخصية المركزية في الرواية، حالات نفسية جاءت كحصيلة لمسارها الحافل بالأحداث ذات الطابع السياسي.

لذلك فالتساؤل المطروح:

هل استطاع الكاتب (ياسمينة خضرا) الالتفاف حول الشخصية المركزية (البطلة) ؟
هل استطاع قراءة حالتها النفسية ؟
هل أسعفته قدرته الفنية في تصوير الحالة النفسية لها ؟
هل ما كتبه (ياسمينة خضرا) هو سيرة غيرية فقط أم أيضا يمكن اعتبارها سيرة ذاتية بضمير الغائب المتكلم ؟
هل هيمن ضمير الأنا على مجمل الرواية ؟
ماذا أراد الكاتب (ياسمينة خضرا) من كتابته لهذه الرواية ؟ هل هي مجرد عمل فني أم إعطاء نموذج للقارئ حول من تدفعه " الأنا المتضخمة" إلى نهاية كارثية ؟
لماذا اختار (ياسمينة خضرا) عنوان "ليلة الريس الأخيرة' هل هي ليلة فقط أم تاريخ مختزل في ليلة ذات طابع نفسي بحت ؟

المتن (التحليل):

1/ الكاتب و الإحاطة الإدراكية بالشخصية المركزية:

بعد قراءة عميقة لرواية (ياسمينة خضرا) "ليلة الريس الأخيرة"، اتضح لنا للوهلة الأولى أن هذه الرواية ليست عادية، إنها أشبه ما يكون بفيلم وثائقي بامتياز، لقد تمكن الكاتب فعلا من الإحاطة بشخصيته المركزية، و كأنه كان يعيش برفقتها أو كأنه أحد المقربين منها، لقد استطاع الكاتب تصوير أدق تفاصيل شخصيته، و أمعن في توضيح ملامح الشخصية النفسية و تضاعيفها، لقد ابتدأ نصه من خلال ذاكرة الشخصية نفسها، لما تذكرت هذه الشخصية مرحلة الطفولة و الصبى، و كيف كان الخال ينصهر انصهارا مع الطبيعة الصحراوية و قساوة البادية، و كيف كان يشعل النار وينام في العار مرتاح البال، مطلقا العنان لأحلامه كي تؤنسه و تطرد عنه وحشته، جاء في الرواية: " حين كنت صغيرا كان خالي يصطحبني أحيانا إلى الصحراء، فهي في نظره مطهر للروح أكثر منها مجرد عودة إلى الجذور.. كان خالي شاعرا من دون أمجاد و لا ادعاءات. بدوي مؤثر بتواضعه، لم يكن يطلب سوى خيمة في ظل شجرة و الإصغاء إلى صوت الريح و هي تنزلق على الرمال بخفة ظل. كان لديه حصان بديع ذو سمرة داكنة ضاربة إلى الحمرة، و كلبان

سلوقيان في تأهب دائم، و بندقية قديمة لصيد الوعول، و كان أمهر من نصب الأفخاخ لحيوانات اليربوع التي تصاد لمنافعها الطبية، إضافة إلى الضب الذي يبيعه في السوق بعد أن يحشوه بالقش و يزينه. مع هبوط الليل كان خالي يوقد النار في العراء، ثم يستسلم لأحلامه بعد أن يتناول وجبة خفيفة مع كوب من الشاي شديد الحلاوة، و كانت لحظة مباركة بالنسبة إلي، حين أراه متحدا بالصمت و عراء منبسطات الحصى و الصخور"[1] يوضح لنا هذا المقطع من الرواية، مدى قدرة الكاتب على الإلمام بتفاصيل الشخصية المركزية (البطلة) الحياتية، فهو لم يهندس لحياة الزعيم وفق الأحداث السياسية الأخيرة في مشوار حكمه، بل أتاح لذاكرة الشخصية المركزية فرصة التذكر، و لعل الغاية من هذه الخطوة، هو تفعيل النوستالجيا (الحنين إلى الماضي)، التي استأثرت بالزعيم في عزلته، فهو في حصار الحرب الطاحنة المشتعلة من قبل رافضيه من الشعب الليبي، فعادة ما يحن الشخص لماضي طفولته و ما فيها من أحداث، خاصة لما يكون أحد الأقارب من الفاعلين فيها، إن العزلة تنشط الذاكرة، و تجعل أحداث الماضي تنهمر كأنها فيلم يعرض أمام المرء. انعكست هذه النوستالجيا على الشخصية المركزية، من قبيل أن وقع الصدمة (صدمة الانقلاب الشعبي) لم تكن متوقعة بتاتا، إذا أن الوضع الأمني و الاجتماعي في البلاد كان مستقرا، بل كان هناك رخاء و رغد و رفاهية، ثم بين ليلة و ضحاها، أتى ما لم يكن في الحسبان، إنه (الربيع العربي)، هكذا يسمونه هؤلاء الثوريون الجدد، حيث اشتعلت الأحداث من (تونس) و كانت نقطة الاشتعال آنذاك، (اشتعال البائع التونسي محمد البوعزيزي لما أقدم على حرق نفسه بعد تلقيه صفعة من شرطية محسوبة على نظام بن علي)، مهما كانت أو تعددت المسميات فالثورة قامت قامت، ثورة حقيقية أو مضادة أو مؤامرة، لكن المخلفات النفسية التي ألقتها على نفسية الشخصية المركزية، عديدة، حيث اتضح أن هذه النوستالجيا أبانت تركيبة (الأنا المتضخم) لديها، فمنذ الصغر و هي ترى نفسها أنها حاملة لمواصفات غير اعتيادية، مواصفات الاصطفاء و القيادة و الزعامة، إنها الفرادة النابعة من ثقل نرجسي بامتياز، فالأنا المتضخم يبتدئ مستوى تضخمه من شذرات نرجسية، إلى كتل تقديسية للذات و تلكم هي قمة النرجسية، تصبح (الأنا) صنما للعبادة، حيث يحيد المرء عن جادة الصواب.

يكمن تألق التفاف الكاتب بالشخصية المركزية في المعرفة الدقيقة بسيرتها الذاتية، مما سمح له بحرية التصرف الفني في الصياغة السردية لها في ثنايا الرواية، و هنا نقطة التحول البارزة من جعل السيرة الذاتية للشخصية المركزية – التي لم تتح لها فرصة تدوين سيرة لها أو مذكرات كما يفعلها عادة معظم الشخصيات البارزة و هذا راجع إلى طبيعة الأحداث المفاجئة التي أحدث خلخلة و رجة- إلى سيرة غيرية، و هنا لا يعني أن الكاتب كسر حرمة المحطات التاريخية للشخصية و عبث بها، لأن ذلك يعد توظيف ايديولوجيا الكاتب في إطار السيرة الذاتية للشخصية، بل المقصد من وراء التفاف الكاتب هو العلم الكامل

---

[1] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت– لبنان، ص 07.

بمجريات الأحداث المهمة في حياة الشخصية المركزية، علم ناتج عن امعان في قراءة محطات الشخصية المركزية الحياتية والسلطوية، فالتبصر النقدي كفيل بإحراز فعل الالتفات و الإحاطة.

ذكر لنا الكاتب أيضا مقاطع سردية، توضح لنا مدى اطلاعه و الغاية من ذلك حول حياة الشخصية المركزية، لأن امكانية الاطلاع على أحداث الطفولة، هو اطلاع على منظومة الأماني و الأحلام، التي أصبحت في المستقبل حقائق، ثم تحولت إلى أحداث عصفت بمنظومة السلطة، هذه الأخيرة اختزلت في صيغة (الحكم الفردي)، حيث كانت للشخصية المركزية رؤية ثورية بداية الأمر، و لما تمكنت من الظفر بكرسي السلطة، انحرف مسار السلطة من المدى الثوري و حرية الرأي و بنود الديمقراطية ومرتكزاتها، إلى المدى الديكتاتوري و تقييد الحريات و قمع الأفكار المعارضة، والزج بحامليها في غياهب السجون أو القبر.

جاء في الرواية: "... كان خالي يقسم بأني الولد المبارك في عشيرة الغوص الذي سيعيد إلى قبيلة القذاذفة ملاحمها المنسية و مجدها التليد"[2]

أي مجد هذا، الذي يتحول معه المشروع الثوري البناء، من مشروع تغييري صادق و حافل بالآمال الشعبية المعلقة، إلى أطماع شخصية و استئثار مقيت بمقاليد الحكم، أليست هذه العملية و هذا التحول البارز في الشخصية قبل الحكم، هو مرض نفسي كانت نواته الأولى في الصبى و مراحل الطفولة، إذن لم يخطئ الكاتب لما وظف مرحلة الطفولة في سيرية الأحداث، كان الأحرى به الاكتفاء بما حملته الأربع و العشرين ساعة الأخيرة من نهاية مظلمة للشخصية المركزية، لكن كان الكاتب يوجه رؤية الناقد إلى تلك الحزمة من الطموحات الشاذة و المطحونة بالأنا المتضخم و النرجسية المفرطة.

ثم أليست نظرة الخال لإبن أخته، نظرة مبالغ فيها، لو قلنا أنها فراسة، كان من الطبيعي أن تكون النتائج ايجابية و يتحقق بذلك مصير أمة من الطغيان الملكي إلى الرغد الديمقراطي و حرية التعبير، لكن لما تغيرت النظرة الشخصية للشخصية المركزية، يصبح الأمر مختلفا، و يمكن بذلك تفنيد هذه الحادثة، و اعتبارها مجرد ضخ نوستالجي كاذب، أرادت الشخصية المركزية منه التخفيف ليس إلا، التخفيف من هول الأحداث المحيطة بها، و هي قابعة في مدرسة في مدينة سرت، إحدى مدن ليبيا الشهيرة، و التي فيها تاريخ حافل بالنسبة للشخصية المركزية.

حتى البعد البيولوجي كان له نصيب كبير، من نوستالجيا الشخصية المركزية، حيث نجدها تحن لأيام الاستمتاع و الاختلاء، ببساطة تامة، مادام الحكم في يدها، يسهل عليها الطلب، جاء في الرواية: " يا للنساء... كنت أملك منهن المئات. و من كل نوع. فنانات، مثقفات، عذراوات، خادمات، زوجات مسؤولين موالين أو متآمرين"[3]

---

[2] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 08.

[3] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 55.

يوضح هذا المقطع تلك الحالة الحنينية الاشتهائية المرضية للشخصية المركزية، فالمتأمل في هذا المقطع يلاحظ وجود خلل في نفسية الشخصية المركزية، إذ أن شريعة الزواج لم تكفها حقها، و العيب ليس في الزواج، و إنما يمكن ترجمة هذا السلوك السادي الشاذ، بالحرمان و الاقصاء الذي تعرضت له هذه الشخصية المركزية في مرحلة شبابها، أي كأنها شهدت حالة عاطفية فاشلة، و انسداد تام في علاقة، قد كان لأطراف أخرى اليد الطولى فيه، حيث ما يؤكد صحة ذلك، هو ما جاء في الرواية من ذكر للشخصية المركزية حول قصتها مع فتاة في مشوار الدراسة، حيث تم الاعجاب و تم بعده التعلق، ثم التصميم على الزواج من هذه الفتاة، ليأتي والد الفتاة و يقف حجر عثرة في مشروع الزواج، حيث كانت للوالد نظرة تراتبية طبقية في عرف الزواج، هكذا كان يعتقد والد الفتاة، باعتباره ليبي و يعرف تقاليد و أعراف المجتمع الليبي، من بدو و حضر.

جاء في الرواية: "... خبرت هذا الألم العظيم الذي يسمونه حبا في مدرسة سبها، في فزان القبلية.. كنت أكتب لها رسائل ملتهبة و لم أتمكن مرة من دس واحدة إليها. كانت تقيم داخل حرم المدرسة.. بعد سنوات وقعت لها على أثر في طرابلس حيث انتقلت عائلتها. كأن القدر شاء أن يعوضني ما انتزعته مني خيباتي المؤلمة: فاتن كانت منذورة لي، مختالا في ثياب ضابط اتصالات شاب، ذهبت أطلب يدها، و في يدي قالب حلوى ابتعته من أشهر محل حلوى في المدينة .. شرف كبير لي إن أنت تكرمت علي بيد ابنتك. ابتلع ضحكته. تغضن جبينه و رماني بنظرة محت أي أثر لي تقريبا على صفحة الوجود. قال لي: -أنت ليبي أيها الملازم أول، و تدرك تماما التقاليد التي تحكم علاقاتنا. –لا أفهم ما تقصده يا سيدي. –بلى، أنت تفهمني جيدا، في مجتمعنا تراتب تماما كما في الجيش"[4]

منطق والد الفتاة كان عسكريا في المجال العرفي، و هو ما شكل عقدة لدى الشخصية المركزية، فتحولت بذلك هذه العقدة من انتقام من هذه الأسرة، إلى الانتقام المشبع بالتعويض الجنسي من النساء عامة، مثقفة، فنانة، زوجة مسؤول، خادمة، شابة عذراء في مقتبل العمر، أي كل امرأة أتت على صعيد الرغبة، فالذاكرة مشحونة بماض مريض متنوع تماما، كان للسلطة فيه تسهيل لتحقيق مآرب شخصية بحتة، و لم يكن فيه إلا النزر اليسير من البرامج التنموية المفيدة للأمة.

2/ قراءة الكاتب للحالة النفسية للشخصية المركزية:

سهل على الكاتب قراءة الحالة النفسية للشخصية المركزية في الرواية، و ترجمة ذلك الشعور المهيمن عليها، ذلك الشعور بالإرباك و تحطم الارادة لديها، إذ استعصى عليها أمر احتواء الأزمة الشعبية التي اشتعلت على أرض عمر المختار، يسهل على الانسان العادي قراءة رجل السلطة، لما يفقد السيطرة على الوضع الأمني، مما يشكل لديه انهيارا في البنية النفسية لديه، فالتحول في مجرى الأحداث من حالة السكون و الاستقرار، إلى الحركة

---

[4] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 55-56-60.

و الفوضى و اللااستقرار، من شأنه كشف لبواطن التفكير لدى الشخصية المركزية، ففقدان السلطة هو فقدان للحيز الوجودي، و تلاشي تام للماهية، و صياغة تاريخ آخر للوضع، من الصعب إذن على الشخصية المركزية التحكم في سير الأحداث، مادام الشك و فقدان الثقة يتسرب للمقربين منها، حيث نجد في الرواية مقاطع حوارية دارت بين الشخصية المركزية و الشخصيات الثانوية الموالية لها، و كيف تزعزعت الثقة نسبيا، مما رجح الكفة لصالح الإرادة الشعبية.

هذا التحطم النفسي للشخصية المركزية، أظهره لنا الكاتب في صيغة عقد نفسية وعلل مستفحلة فيها، حيث كشفت الصدمة عن وجود (عقدة النرجسية و جنون العظمة أو البارا نويا و كذلك تضخم الأنا البارز، و العقدة الأبرز هي الشيزوفرانيا أو الانفصام في الشخصية)، جاء في الرواية: "... لا تحقد عليه، قال لي أبوبكر، إنه يمر بفترة اكتئاب نفسي، لا أحب أن يكتئب الناس في حضوري، ربع ساعة مع هذا الانهزامي المتشائم يوازي عاما بكامله من الأشغال الشاقة، إنه يضجرني و يثير غضبي في الوقت نفسه، إني أفهمك يا سيدي، سيتمالك نفسه"[5]

دب الشعور بتزعزع الثقة في محيط الشخصية المركزية، و توالت نظرات الشك و الريبة لأقرب المقربين، و هذا راجع لمجمل الخوف المهيمن على الساحة، والارتباك نتيجة قلة التحصين العسكري، و قلة التسليح و وسائل الدفاع، و كذلك الامدادات الغذائية و الصحية، فهم في مدينة بعيدة كثيرا عن ساحل ليبيا، بالأحرى هم في منطقة ذات طبيعة جغرافية صحراوية حارة جدا، فتأزم الوضع الأمني، قلب الموازين في مخيلة الشخصية المركزية، التي كان راهنها الأعظم سحق المتمردين على النظام في أقل من يوم، لكن الوضع اتخذ منحى آخر تماما، إذ أصبحت كفة المتمردين هي المالكة لمنطق السيطرة على الوضع لصالحها، و لا ننس الدعم العسكري من حلف الناتو، الذي تدخل بصفته حامي لحقوق الانسان و الشعوب في تقرير مصيرها، و ما يمكن قوله في حقيقة الأمر، أن للأخير أهداف اقتصادية بحتة، متمثلة في البترول الذي تزخر به ليبيا ليس إلا، و مختلف المعادن والثروات الطبيعية الأخرى.

3/ قدرة الكاتب الفنية في تصوير الحالة النفسية للشخصية المركزية:

تجسدت قدرة الكاتب الفنية، في طريقة الصياغة السردية، إذ أن السرد في الرواية، كسر تلك الطريقة القديمة القائمة على الاطارية و الخطية و الرتابة، بمعنى جعل منطق (ميخائيل باختين الناقد الروسي) البوليفوني (تعددية الأصوات)، فاعلا في الصياغة السردية للأحداث، و هذا ما يجذب القارئ لمتابعة الأحداث من خلال تعدد الأصوات، وحتى الأفعال الانجازية و القولية و اللاقولية بارزة، التي أتى بها (الناقدين غوفمان

---

[5] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 50.

و أوستن)، فلو تأملنا شريط الأحداث الأمنية، لنجدها زاخرة بمثل هذه الممارسات الانجازية و القولية، التي تدخل ضمن اطار الخطاب الانجازي في الحقل التداولي.
لقد قسم الناقد الأمريكي (جون سورل) الأعمال اللاقولية إلى خمسة أقسام: (الاخبارات- الطلبيات أو الأوامر- الوعديات- الافصاحات أو التعبيريات- التصريحيات) [6]
، و استطاع الكاتب توظيفها بحس نقدي في الرواية، فبالنسبة للإخبارات: و التي فيجوهرها قائمة على فكرة "اليقين بالمحتوى"، نجدها متجسدة بكثرة في مقاطع من الرواية، جاء في الرواية: "... راودني حلم يا منصور، رؤيا، لا أزال أذكر الحلم الذي راودك عشية اجتياح العراق، لقد رأيت كل شيء، إذن اطمئن سريعا، الحلم الذي رأيته يشد من عزيمتي: سننتصر قبل انقضاء أكتوبر"[7] .
في هذا الحديث الذي دار بين (منصور ضو) قائد الحرس الشعبي، و بين الزعيم الليبي أو الشخصية المركزية، نجد أن هناك فعل اخباري تجسد من خلال ما حلمت به الشخصية المركزية، ففعل الطمأنة سبق فعل الاخبار بالانتصار الذي سيتحقق شهر أكوتبر، و هذه العملية الاستباقية للأفعال، من شأنها خلق أريحية للطرف الآخر من الحديث، أو الطرف المستمع، و يمهد لفعل بعده و هو فعل انجازي متمثل في "الانتصار"، انتصار نفسي أولي يسبق ذلك الانتصار الميداني، الذي ستكون فيه الكفة لصالح جبهة الزعيم، هكذا كان حلم الشخصية المركزية، حلم مشبع بيقينية التحقق.
أما بالنسبة للطلبيات (الأوامر) القائمة في جوهرها على فكرة " أن تكون الحالة النفسية مبنية على ثنائية: رغبة/إرادة"، فهي كسابقتها متجسدة في النص، و بكثرة أيضا، جاء في الرواية: "...- كُلْ، قلت للخادم، هذه المرة أزاح بيده قطعة البسكويت، و أومأ رافضا بإشارة من رأسه، لا أستطيع أن أبتلع شيئا، أيها الأخ القائد، إذا عد إلى بيتك، قرب بناتك، لا أريد أن أراك ثانية في هذه الأرجاء، هل قلت شيئا لم يعجبك؟، اذهب، أريد أن أصلي، لبى الخادم الطلب، أخلِ المكان أولا، قلت له، اجمع هذه المأدبة البائسة و تقاسمها مع أولئك الذين يعتقدون أن المرء لكي يكبر عليه أن يقتل أباه، لم تكن في نيتي الإساءة إليك، إليك عني، أنا...، انصرف"[8] .
يبدو من خلال هذا المقطع، أن الحديث بين الشخصية المركزية و رئيس الحرس الشعبي، يشهد تشنجا و توترا و انزعاجا بالغا، فالعلاقة بين الطرفين لم تعد متينة كسابق عهدها، بل أصابها الترهل و التآكل، نتيجة الوضع الأمني العام، فالحرب تجرد الأقنعة، و فيها تبلى السرائر، لقد شهد الحديث تخللا للأفعال الانجازية الطلبية كثيرا، فالشخصية المركزية كانت حالتها النفسية غاضبة غضبا عارما، مما يمكن ترجمة طلباتها على أنها باحثة عن خلوة بالذات، لكي تستعيد هدوءها و تصون تركيزها، فالطرف الآخر في الحديث ربما أثقل

---

[6] فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، ط1 2007، اللاذقية- سوريا، ص 66.

[7] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 72.

[8] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 24.

كاهلها و زاد على عبء الحرب عبئا آخر ناتج عن نفسية منهارة مهترئة، لذلك كانت الأوامر تتدرج من ضعيفة نسبية إلى قوية جدا ختمت الحديث بالطرد، فالبداية كانت بطلب من الشخصية المركزية للمشاركة في الأكل معها، لكن تم رفض الطلب، فحدث انزعاج، ثم تم أمر بالعودة إلى البيت، لكن تم رفض الطلب مجددا، ثم تضاعفت حدة الانزعاج، ثم تم طلب عدم رؤية الشخص المتحدث إليه، ثم تعزيز الطلب بأمر الذهاب، ثم تعزيزه ثانيا بفعل الاخلاء، ثم دعم الطلب بجمع المأدبة، ليتم ختام الحديث بدرجات غضب عالية المستوى، و مصحوبة بعبارة "... و تقاسمها مع أولئك الذين يعتقدون أن المرء لكي يكبر عليه أن يقتل أباه"، فمجموع هذه الطلبات من قبل الشخصية المركزية، و الموجهة لرئيس الحرس الشعبي، نجدها مبنية على رغبة نفسية في الاختلاء بالنفس بعيدا عن صخب الوضع و ضوضائه، و هذا أولا، أما ثانيا فنجد هذا المجموع من الطلبات مبنية أيضا على إرادة قوية و موقف حازم في جعل رئيس الحرس الشعبي يستعيد رباطة شأجه، و لا يترك سبيلا لتسلل اليأس لديه، فهو طرده لاهتراء أصاب نفسيته، فبالتالي هذا الطرد يحمل ميزتين طرد نتيجة الغضب، و طرد لمراجعة حسابات الذات، و كيف يمكن ترويضها على مثل هذه الأزمات الأمنية، التي عادة ما يصاب فيها المرء برجات نفسية.

ثم نأتي لتحقق الوعديات في الرواية، و القائمة على فكرة " جعل المتكلم ملزما بإنجاز عمل"، جاء في الرواية: "... سأخرج من هذه الفوضى أقوى من أي وقت مضى، كطائر الفينيق الذي ينبعث من رماده، صوتي يمضي أبعد مما تبلغه الصواريخ الباليستية، سأخرس الأعاصير بمجرد إشارة من إصبعي إلى قبيلتي"[9] .

الظاهر في هذا المقطع من الرواية، أن الشخصية المركزية مفعمة بدرجة عالية من الثقة بالنفس، في انجازها لوعدها هذا، وعد الخلاص من المأزق الأمني الذي عصف بالبلاد، خلاص شبهته الشخصية المركزية بخلاص أسطوري، على طريقة طائر الفينيق الأسطورة، ثقة في النفس تضاهي قوتها قوة أسلحة الدمار الشامل، ما هذه الثقة الزائدة، ألهذه الدرجة يمكن تصغير العدو، و تجاهل مدى امكانية زحفه، أرى أن تلك الثقة الزائدة هي في أصلها ترسبات لنرجسية أطبقت منذ أمد بعيد على تركيبة الشخصية المركزية.

من الناحية الخطابية، نجد الشخصية المركزية حققت فعل "الوعد"، أما ميدانيا و عملياتيا، فنجدها قد فشلت تماما، و المقطع الأخير من الرواية يوضح ذلك، مقطع لحظة إلقاء القبض على الشخصية المركزية في وضعية تحصينية جد ضعيفة و مهينة للأسف الشديد، جاء في الرواية: "...لا أفوت هذا المشهد مقابل أي شيء في العالم، يا للصورة، يا للمعنويات، الرجل الذي كان يتوهم نفسه ممتطيا الغيوم، يلقى القبض عليه في فخ في قناة ري قديمة... إنها العودة إلى الينابيع أيها الأخ القائد، ولدت من روث جمل، و في روثك أنت ستموت"[10] .

---

[9] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 10.

[10] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 181.

نرى أن الوعديات حققتها كفة الثوار، بعد الظفر بإلقاء القبض على الشخصية المركزية، أي انجاز هذا ؟، حقا يعد بالنسبة لهم أمرا عظيما و انتصارا ساحقا.
و بالنسبة للإفصاحات أو التعبيريات، و القائمة على فكرة " التعبير عن الحالة النفسية بشرط أن يكون ثمة نية صادقة"، فنجدها أيضا موظفة في النص الروائي بكثرة، لقد جاء في الرواية: "...بنغازي ! ، كل شيء إلا هذا الإسم، أشعر برغبة في تقيؤ فيضان هائل يمحو هذه المدينة الملعونة و القرى المحيطة بها، من هناك انطلق كل شيء، وباء مدمر استولى على النفوس كشيطان، كان علي أن أبيدها منذ اليوم الأول و أطارد المتمردين فيها (زنقة زنقة و دار دار)، سالخا جلود المفسدين بينهم في الساحات العامة ليستر كل ذي نية سيئة نواياه، كي لا يلقى المصير نفسه"[11] .
افصاح الشخصية المركزية أمام رئيس الحرس الشعبي، كان يحمل غضبا عارما و مقتا شديدا لهذه المدينة الملعونة، فالتمرد نشأ فيها بادئ الأمر، حيث ابتدأ باحتجاجات و مظاهرات عارمة، انتشر لهيبها لمختلف الولايات الليبية الأخرى، لذلك نلاحظ شعور رهيبا بالكره و المقت و اللعن، تحمله تعابير الشخصية المركزية في حديثها مع رئيس الحرس الشعبي، تعبير يحمل حقيقة نسبة صدق مائة بالمائة، و هل يكذب الشخص في ظرف مثل هذا الظرف الأمني المتأزم ؟.
و بالنسبة للتصريحيات، و القائمة على فكرة " إحداث واقعة"، فنجد ذلك مجسدا بكثرة في الرواية، جاء في الرواية: "... و قلت: كفى !، و صرخت: الموت للملك !، و أقمت الجمهورية و أحققت العدالة، هنا بالذات، في هذه المدينة التي تتخلى عن قيمها، دككت المقاهي الرديئة، و هدمت الأكواخ القذرة،.. خططت الجادات أوسع من الميادين، و حولت الأراضي البور حدائق مزهرة كي يتحد الحلم بفرحة العيش، بفضل من؟، بفضلي أنا، و أنا فقط، أب الثورة"[12] .
نلاحظ أن التصريح الصادر بقوة، من نفسية الشخصية المركزية، كان تجسيده في عام 1969م، عندما كان تصريحه ثوري ضد مسار الحكم الملكي للملك إدريس الثاني، يمكن قراءة هذه الموجة من التصريحات المعارضة للنظام الملكي، على أنها تخفي وراء قائلها و مصرحها، شخصية حديدية ذات طموح كبير في تقلد الحكم بأي طريقة كانت، أليست الشخصية المركزية هي من قالت في هذا المقطع السابق من الرواية "و أنا فقط أب الثورة"؟، حتى و لو استدعى ذلك التصفية الجسدية، فمادام التصريح كان قويا و صاخبا، فذلك مؤشر لفساد الوضع العام في البلاد، و أن جلالة الملك إدريس غائب تسييريا عن الساحة السياسية و التنموية، فلذلك كشف لنا هذا المقطع الجانب النفسي للتصريحات للشخصية المركزية، من بين النقاط النفسية في هذا التصريح، هو الشعور بالقهر داخليا، فارتفاع مستوى ذلك الشعور، من شأنه يحدث تصريحا قويا، و شجاعة خطابية نادرة،

---

[11] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 16.

[12] ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 160-161.

تشحذ همم الراغبين في تغيير مسار الحكم، هذا الذي على حافة الهلاك، و في زمن كانت فيه قول كلمة فقط تفقد صاحبها التمتع بالهواء الطلق.

4/ رواية (ليلة الريس الأخيرة) بين سيرة غيرية و سيرة ذاتية بضمير الغائب المتكلم:

عند قراءة هذه الرواية للكاتب الجزائري (ياسمينة خضرا)، أول ما نلاحظه هو أن النص في حد ذاته، يحمل أوجه عديدة من حيث تحديد الضمير المهيمن على النص، بمعنى أن النص لدى قراءته، يحس القارئ- الناقد، أن النص ليس برواية اطلاقا، بل مجردة سيرة ذاتية، كتبها الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي، و هو يخوض حربا ضد شعبه الرافض له، فلقد استطاع الكاتب، جعل هذه الرواية نصا سرديا مرنا للغاية، و نقصد بالمرونة هنا، هي المرونة التأويلية له، حيث يسهل على الناقد تصنيف هذا النص حسب قراءته له، إذا أراد اعتباره سيرة ذاتية، فله ذلك و هو على حق، فالأنا المتكلم مهيمنة كثيرا في النص، مما يدل على وجود مؤشرات كون الزعيم دون سيرته، و قام الكاتب بتأليف عمله على هذه السيرة الذاتية السابقة، فمن يدري ؟.

كما يمكن لقارئ ناقد آخر، اعتبار هذه الرواية، مجرد سيرة غيرية، أراد الكاتب منها التعرف على نقاط الظل في حياة و تاريخ الزعيم الليبي أو الشخصية المركزية في النص، و يستطيع ناقد آخر، وفق منظوره النقدي، تصنيف هذه الرواية على أنها من نوع آخر تماما، و هو أنها سيرة ذاتية لكن ليس كباقي السير الذاتية المعروفة، بل سيرة ذاتية يكون فيها ضمير الغائب هو المتكلم، فالزعيم توفي في أكتوبر 2011م، و النص كتب في 2015م، فما دون في هذه الرواية السير ذاتية، كأن الزعيم حي و يكتبها بقلمه، لكن هو متوفي، و الذي جعل حضوره في السيرة الذاتية، هو نسبة حضور ضمير الأنا في النص بكثرة، عن باقي ضمائر الشخصيات الأخرى، و السبب في ذلك راجع لطبيعة الأحداث، و كذلك للموقع الذي يحتله الزعيم في العالم، و لكونه شخصية مركزية في الرواية، فبالتالي ستكون نسبة تركيز الجانب الفني للكاتب عليها هي، ابتداء من العنوان، إلى بداية النص ثم متن النص، ثم ختام النص.

إذن يبقى هذا النص السردي، حبيس رهانات القراءة النقدية للنص، بطبيعة الحال اعتماد على الخلفية التكوينية لكل قارئ-ناقد، فالنص السردي ثابت، و القراء كثر.

5/ هيمنة ضمير "الأنا" على مجمل الرواية:

عجت رواية "ليلة الريس الأخيرة"، بكثرة حضور ضمير "الأنا" فيها، فلدى قراءة هذه الرواية، نلاحظ أن الشخصية المركزية، مهيمنة على مجمل الخطابات و الحوارات و التصريحات، نسبة كبيرة استولت عليها، و الغاية من هيمنة هذا الضمير الذي هو ضمير الشخصية المركزية، هو تبيان مقصود من الكاتب، فحواه أن الحضور النصي لضمير "الأنا"، يعكس تاريخيا، حضوره في الماضي، و كيف كان يهمين الزعيم في خطاباته و حواراته مع الآخرين، و كيف لم يجعل لهم فرصة في التبادلية الحوارية، مما يعكس

نقص في ثقافة الحوار لدى محيطه السياسي، فبطبيعة الحال التاريخ يوضح أن طبيعة الأنظمة الديكتاتورية، تطرد ثقافة الحوار من ساحتها السلطوية، و تغلب ضمير "الأنا" الفردي على "الأنا" الجماعي، فالأنا الجماعي في نظرها تهديد صارخ لكرسي الحكم، لا اعتباره حوارا يعزز من شأن الرؤية السياسية للأمة جميعا.

6/ مقصدية الكاتب من إنشاء هذه الرواية:
يمكن قراءة هدف الكاتب من كتابة هذا العمل الابداعي، من زاوية أن حساسية الموضوع المطروح أمام القارئ، تجبره على ترك ذلك الحكم السطحي، القائم على فكرة أن الكاتب تدفعه تلك الموجة الهائلة من الرغبات الفنية الدفينة للكتابة و فقط ليس إلا، فالنص في حدا ذاته يدافع عن طبيعة الموضوع و حساسيته، عند قراءة الرواية، تجد أن الجانب الفني يخدم حساسية الموضوع، و لو لم يخدمها، لأصبح النص مجرد تقرير اخباري اعلامي بحت، إذن الحيز الفني للكاتب تم تسخيره لخدمة حساسية و خصوصية الموضوع و الأحداث الأمنية اللصيقة بالشخصية المركزية، بالإضافة إلى هذا كله احتوى النص السردي على صياغة نموذج للحكم، يقدم للقارئ، كنموذج لقوة كانت قائمة بمؤسسات و ثروات، ثم فجأة تنقضي، فبالتالي ما على القارئ سوى معرفة الأسباب المؤدية لزوال مثل هذه القوة الحاكمة الجبارة، و معرفة السبب الرئيسي في تقويضها، حسب الكاتب، و من خلال فك شيفرة النص المبنية على احصائية الضمائر فيه، اتضح أن ضمير "الأنا" المتعلق بالشخصية المركزية، هو المسؤول على هذه النهاية الكارثية، بسبب تضخم نفسي في الأنا، أدى إلى استفراد في الحكم، و تفعيل نظرة أحادية سياسية، بدل نظرة متعددة علها تكون محتوية على حلول و خلاص سياسي و اقتصادي، لكن النص اتبع سيرية الأحداث التي كانت نهايته حاملة لنموذج انهياري كارثي، يصبح عبرة للقارئ بعد الشاهد للعيان.

7/ عنوان "ليلة الريس الأخيرة": هل هي ليلة فقط أم تاريخ مختزل في ليلة ذات طابع نفسي بحت؟ :
عند قراءة هذه الرواية، أول ما يلفت انتباه القارئ هو "العنوان"، إذا يطرح تساؤلا عميقا حوله، كيف لرجل حكم مدة 42 سنة، أن تكفيه ليلة واحدة كتابة عنه، و بالأحرى لماذا سميت بالأخيرة، أهي مهمة على سابقاتها من الليالي، من الناحية الزمنية هي ليلة مقدارها الزمني مثل سابقاتها، أم كأحداث فهي حاملة لأحداث من بداية ممارسة الحكم إلى نهايته، ففيها أي هذه الليلة الأخيرة، تم عمل ذاكرة الشخصية المركزية، إذ استطاع الكاتب جعل الشخصية المركزية تستعيد و تتذكر أحداثها القديمة، و كيف عانت من سطوة الملك (إدريس الثاني)، ثم تنفيذ عملية الانقلاب عليه، ثم تولي السلطة في مكانه بالقوة الثورية، إذ استمدت هذه الشخصية المركزية شرعيتها من الفكر الثوري، نتيجة التأثر بالماركسية و الغرامشية و حركة الضباط الأحرار بمصر، بزعامة (جمال عبد الناصر)، ثم أيام

الاستمتاع بالحكم و ما سخره للشخصية المركزية، من أهداف و رغبات شخصية، كانت محرومة منها في السابق، إذن الحيز النفسي في الرواية كان كفيلا باختزال هذه المدة الزمنية في ليلة واحدة و أخيرة، فنشاط الذاكرة كان قويا، بفعل صدمة الثوار التقويضية لهذا النظام العادم لمفهوم الديمقراطية، بعدما وعد بتحقيقها سابقا، من إذاعة بنغازي، و التي نفسها انطلقت منها شرارة احتجاجات الثوار الحاليين.

خاتمة:

ملخص القول، احتوت الرواية "ليلة الريس الأخيرة" على البعد النفسي كثيرا، و لقد ارتبط بالشخصية المركزية، أي الزعيم، و ما ارتبطت به من عقد نفسية مرضية، كشفت عنها ثورة الثوار المسماة بالربيع العربي، حيث وجد في الشخصية المركزية، كلا من (النرجسية و تقديس الذات، و جنون العظمة أو البارا نويا، و كذلك التضخم المرضي للأنا، و هيمنته على سلوك الشخصية و ممارستها، بالإضافة إلى الشيزوفرانيا أو انفصام الشخصية، و تغير المزاج الحاد)، و هذه الحالة المرضية للشخصية المركزية، أراد الكاتب تقديمها كنموذج مرضي مصيره النهائي هو التقويض الكارضي، يستفيد منه القارئ- الناقد.

الهوامش:

(1) ياسمينة خضرا: ليلة الريس الأخيرة، تر: أنطوان سركيس، دار الساقي، ط1 2016، بيروت- لبنان، ص 7.
(2) المصدر نفسه: ص 8.
(3) المصدر نفسه: ص 55.
(4) المصدر نفسه: ص 55-56-60.
(5) المصدر نفسه: ص 50.
(6) فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر حباشة، دار الحوار، ط1 2007، اللاذقية- سوريا، ص 66.
(7) المصدر السابق: ص 72.
(8) المصدر السابق: ص 24.
(9) المصدر السابق: 10.
(10) المصدر السابق: 181.
(11) المصدر السابق: ص 16.
(12) المصدر السابق: ص 160- 161.

.